اصل الصنائع

للعلامة الفيلسوف هربرت سبنسر

(يراد بالصنائع في هذه الفصول ما كان منها كالطب والانشاء والغناء وهي ٱلَّتي سماها ابن خلدون بالصنائع الشريفة الموضوع . وسنلخص ما كتبهُ الفيلسوف هربرت سبنسر تلخيصاً ايجازاً لوعدنا ونقتصر على ما قلَّ ودلَّ منهُ)

تمهيد

اذا نزلت جماعة من الناس في بلاد فكل منهم يسعى لحفظ الجماعة كلها وسعيهُ هٰذا ناتج عن سعيهِ لنفسهِ . اي ان سعي الانسان لنفسهِ هو الغاية المقصودة اولاً وسعيهُ لجماعتهِ هو الغاية المقصودة ثانيا او هو النتيجة الناتجة من سعيهِ لنفسهِ . وهذه الغاية الثانية يراد بها حفظ الجماعة ووقايتها من اعدائها . وهي لاتنال جيداً الاَّ بشيء من الانتظام لان الظفر في الحرب لاينال الاَّ اذا خضع المحاربون لرئيس يتولى قيادتهم . ثم اذا مات الرئيس وانتقلت الرئاسة الى ابنهِ وتوارثها نسلهُ خلفاً عن سلف انتظمت احوال الجماعة انتظاماً يزيد مقدرتها عَلَى الحروب ودفع الاعداء عنها ومنع اعتداء بعضها عَلَى بعض . ثم ان القوانين ٱلَّتي يسنها الرئيس لجماعتهِ لا تموت بموتهِ بل تزيد سلطة على النفوس اذا شعرت الجماعة ان روح الرئيس لا تزال تراقبها فتضاف بها سطوة الرئيس الميت الى سطوة ابنهِ الحي

وحينما ينتظم امر الجماعة من حيث وقايتها وحمايتها تتولد فيها قوىً اخرى لازمة لمعيشتها . ففي اول الامر يسعى كل واحد من اعضائها في تحصيل طعامهِ وتحمل لباسهِ ومأواهُ ثم يأخذ يقايض بعضهم بعضاً . وعلى توالي الاعوام يسهل على كلٍّ منهم ان يشترك في ما يصنعهُ غيرهُ . فاذا توفرت لهم الحاجيات من حماية ارواحهم واعالة ابدانهم اخذوا يلتفتون الى الكماليات ٱلَّتي تطيل اعمارهم وهي ٱلَّتي تدعو اليها الصنائع الشريفة الموضوع كالطب والغناء فان الطبيب الذي يزيل الآلام ويجبر العظام ويشفي الاسقام ويمنع الموت الباكر يطيل اعمار الناس . والمغني والناظم والمنشد يقصدون كلهم بتنبيه العواطف وتطييب النفوس اطالة الاعمار . والمؤرخ والمؤلف يفيدان القرَّاء ويسرَّانهم فيرقيان عقولهم ويزيدان اختبارهم ويطيلان اعمارهم وقس على ذلك العلماء والفقهاء فانهم كلهم يساعدون البشر على اطالة الحياة

ويمكن رد هذه الصنائع كلها الى اصلين كبيرين الرئاسة السياسيَّة والرئاسة الدينيَّة .

فالجماعات الاولى من الناس نشأت فيها الرئاسة السياسيَّة لانها اضطرت ان تحارب بعضها بعضاً واضطرت كل جماعة منها ان تخضع لرئيس يسوسها ويقودها وقت الحرب . فاذا توالت الحروب اضطرت الجماعة ان تخضع لهذا الرئيس كلما نشبت نار الحرب وان تكرمهُ وتطيعهُ في غير وقت الحرب ايضاً . واذا تغلب على جماعات اخرى اكرمتهُ هذه الجماعات ايضاً وعظمت شأنهُ . ومعلوم ان الاعتقاد بارواح الموتى متمكن من النفوس فاذا مات الرئيس اكرموا روحهُ كما كانوا يكرمونهُ وهو حي . وكما يكرمون الرئيس الحي بالطعام والشراب يقدمون الطعام والشراب لروحهِ بعد موتهِ فيضعون الطعام على قبرهِ ويسكبون عليهِ الشراب . وكما يذبحون الجزور للرئيس الحي يذبحونها للرئيس الميت وقد يكثرون منها لروحهِ ولارواح اتباعهِ . وان كان الرئيس من الذين يأكلون لحوم الآدميين ذبحوا لهُ الآدميين في مماتهِ لكي تغتذي روحهُ من لحومهم . وهٰذا اصل الضحايا البشريَّة فيصير قبرهُ هيكلاً لضحاياهم . وكثيراً ما يقتلون عبيدهُ وخدَمهُ بعد دفنهِ لكي يخدموهُ في الآخرة كما كانوا يخدمونهُ في هذه الحياة . وقد يقتلون نساءهُ ليتبعن بهِ او يحبسون لهُ العذارى في هيكل قبرهِ . ويبحثون لهُ ركمًا ويكرمونهُ ميتاً كما كانوا يكرمونهُ حيًّا ويسجدونهُ ويمجدونهُ كأنهُ حي . والرقص الذي يرقصونهُ اظهاراً لسرورهم بهِ وهو حي يصير فرضاً دينياً عليهم بعد موتهِ . وهٰذا شأن الغناء والعزف وما اشبه من الشعائر الدينيَّة

فان كانت هذه الامور المتعلقة بالرئاسة السياسيَّة والدينيَّة تتعلق ايضاً ببعض الصنائع صار لهذه الصنائع شأن سياسي وديني معاً . ثم اذا قوي الشأن الديني على توالي الازمان لعلاقتهِ بكائنات فوق البشر ولعدم انحصارهِ في مكان مخصوص قويت تلك الصنائع المرتبطة بهِ وفاقت غيرها . ولذلك ترى ان الصنائع المتعلقة بالخدمة الدينيَّة كالتسبيح ونحت التماثيل وبناء الهياكل قد فاقت غيرها من قديم الزمان . وان الكهنة الذين يقومون بتلك الخدمة كان لهم المقام الاول والسيادة على الناس . وقد رأوا ان لا بدَّ لهم من الاحتفاظ بتلك السيادة فعزوزها بالعلوم والفنون ولاسيما ما كان منها متعلقاً بامور خفيَّة كالطب والقضاء فصرفتهم هذه العلوم عن الاعمال اليديَّة فصاروا يعتمدون على اتعاب غيرهم ويأخذون النذور والصدقات منهم

هذا وسيأتي بسط الكلام على اصل كل صناعة من الصنائع الشريفة الموضوع والاطوار التي مرَّت عليها من اول نشأتها الى الآن